مسلمين) خاصة في سوريا ، استغلال الخصوصيات الاقليمية لكل بلد (في لبنان وسوريا وفلسطين)، الاعتماد على الجواسيس والعملاء (القنصليات — المرسلين) ، العمل العسكري المباشر (مساعدة عسكرية بروسية وروسية للجيش العثماني — تدخل عسكري مسلح) ، التفكير بانشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ليكون قاعدة أمامية للاستعمار الاوروبي في المنطقة ولافشال اي تحرك عربي تحرري في المستقبل .

وبالنسبة لهذه النقطة الاخيرة بالذات ، يخصص المؤرخ حوالي مئتي صفحة (من ص ٣٢٥ الى ص ٥١٦) للكلام عن المشاريع الكثيرة التي بحثت آنذاك والمتعلقة بمصير فلسطين . وهو يشدد على مشروعين رئيسيين فشلا في ذلك الوقت وهما : مشروع بارسال اليهود الى فلسطين ومشروع تدويل القدس . والجدير بالذكر ان هذين المشروعين قد برزا بشكل واضح مباشرة بعد تصفية محمد علي وهذا ما يدفعنا الى القبول بوجود علاقة متينة وعضوية بين أحداث المنطقة ككل والقضية الفلسطينية بشكل خاص .

هذه هي الخطوط العريضة لهذا الكتاب الضخم والذي لا غنى عنه للباحث في تاريخ المنطقة العربية المعاصر ، خاصة وانه يعتمد في مراجعه على الوثائق الاوروبية (المحفوظات الديبلوماسية لكل من النمسا وبروسيا وروسيا وفرنسا وبريطانيا) وعلى اهم ما كتب حتى الان عن تاريخ المنطقة . الا ان الثغرة الوحيدة في هذا المجال (وهذا في رأينا لا يعود الى المؤلف) هو عدم وجود اية مراجع عثمانية والسبب في ذلك هو ان الحكومة التركية لم تفرج حتى الان عن الوثائق والمحفوظات المتكدسة لديها . ثم ان المؤلف يضيء لنا حقبة مجهولة من تاريخنا المعاصر ما زالت مضاعفاتها وآثارها جاثمة على الاحداث الراهنة . فهو قد أضاء لنا الحقبة التي شهدت ولادة القومية العربية (وهذا حسب تقرير القنصل النمساوي بون بروكش الذي قال بالحرف الواحد : « انني أرى الاعجاب المتزايد بمحمد علي في كل البلاد الناطقة باللغة العربية وأرى **يقظة الروح القومية العربية** » ...) وولادة أول دولة عربية موحدة . كما أشار الى التاريخ الذي بدأت فيه معركة الاستعمار ضد الوحدة العربية ونتائج هذه المعركة التي نعيشها اليوم (انشاء دولة اسرائيل — تعميق التجزئة العربية) وهو وان لم يشر بصورة مباشرة الى هذا الترابط العضوي الا ان السياق العام للكتاب : اهتمام اوروبا بالشرق — التذرع بحماية المسيحيين — تجربة محمد علي — القضية الفلسطينية — استقلال لبنان القائم على الطائفية ، كل هذا يؤكد الترابط ويظهر بشكل واضح ان الوحدة العربية هي خطر حقيقي يهدد المصالح الاستعمارية لانها السبيل الى التقدم والتنمية والاستقلال .

وفي النهاية نرى من المفيد ان نضع امام القارىء هذا المقطع من المقدمة التي وضعها المؤلف لكتابه : « ان ليبرالية محمد علي قد فتحت الشرق الاوسط أمام السياح والحجاج الاوروبيين ، فأصبح الوضع السياسي لمدينة القدس والامتيازات التي منحتها السلطة الاسلامية للحجاج المسيحيين موضع تساؤل ، لم تعد هذه الحقوق والواجبات كافية . وهنا تفتق خيال الحكومة النمساوية عن مشروع بتدويل الاماكن المقدسة . وقد رفض هذا المشروع بالاجماع الا ان الكثير من المؤسسات الدينية والسياسية والثقافية ستتمخض عنه وتتحول الى تلاع للنفوذ الغربي . فازاء النظام الكنسي الشرقي، الارثوذكسي بشكل خاص ، المدعوم من روسيا ، تقام ابرشية انكلو — بروسية لخدمة مؤمنين لا وجود لهم في الاصل وتعاد اقامة البطريركية اللاتينية وذلك لارجاع تقليد يعود لزمن الصليبيين. والرابط بين مختلف هذه المؤسسات المتنافسة ليس رابطا عفويا ابدا . وبالاضافة الى هذه المؤسسات أخذت تولد المشاريع السياسية — الاجتماعية الطموحة التي تفتقت عنها مخيلات بعض منظمات الفرسان الصليبيين وبعض كبار رجال المال اليهود . فكان هناك مشروع بانشاء مملكة اريستقراطية صليبية في لبنان وآخر بعودة كثيفة لليهود الى فلسطين . كان هناك الكثير من المشاريع والكثير من المؤسسات والكثير من البذور للمستقبل ايضا » .

كل هذا يدفعنا الى التساؤل : هل هذا الكتاب كتاب تاريخ ام هو قصة تنبؤية ام ان التاريخ يعيد نفسه ؟ ان الاجابة على هذا تكمن في قراءة هذا الكتاب القيم والذي سد نقصا كبيرا في المكتبة التاريخية العربية .

ماجد نعمة